النّظم التّربويّة عند الإمام الصّادق عليه السلام

رؤية تحليليّة

د. السيد نجم الموسوي[1]

تعريف التّربية وهدفها

تُعرَّف التّربية بأنها: تنمية القابليات الإنسانيّة الكامنة في باطن الإنسان، وإخراجها إلى مرحلة الفعليّة[2].

وكما هو واضح، فإنّ الهدف من التّربية ـ بصورة عامّة ـ بناء الإنسان وإعداده وتقويم جانب الخير فيه، وحذف كلِّ مظاهر الانحراف؛ إذ إنّها تهدف إلى غرس روح التفكير العلمي ـ والذي يُعدّ من أهمّ الأهداف التي تتولّاها التربية، وفيه يتمّ إصلاح الإنسان بالمطلق ـ في نفس الإنسان وزرع حبّ العِلم والشوق إلى تحصيل المعرفة وتزويد الطفل الناشئ والشاب بالعلوم والمعارف والمهارات والخبرات اللّازمة[3].

---

(١) أُستاذ علم نفس الطفل، دكتور أُستاذ مساعد في كلية التربية ـ جامعة ميسان.

(٢) مطهري، مرتضى، التربية والتعليم في الإسلام: ص٣٣.

(٣) أُنظر: مؤسسة البلاغ، المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: ص٢١ ـ ٢٢.

وحينئذٍ؛ فالعمليّة التّربوية هدفها بناء الإنسان بناءً صالحاً ليخدم نفسه ومجتمعه وبلده والإنسانية جمعاء، والقائمون على العملية التّربوية يسعون جاهدين إلى تضمين أفضل الفلسفات في ميادين التّربية والتعليم؛ للوصول إلى أفضل الأُطر والنظريات والأُسس التّربوية التي تُسهِم في بناء الناشئ الصغير وجعله مشروعاً لبناء الإنسان المستقبلي.

وعليه؛ يجب أن تسعى التّربية بجميع أجهزتها وطاقاتها إلى تنمية الفكر الإنساني وتحريره من رِبقة الجهل والتقليد، وتنويره بالعِبَر والأحداث والآثار التّربوية.

الحاجة إلى المنهج التّربوي

إنّ التّربية العشوائيّة العفوية ـ غير المبنيّة على أُسس وقواعد علميّة ـ تُبدّد الطاقات والجهود، وتخلق الاضطراب في المجال النفسي والسلوكي، وتَحرِف الأهداف والغايات التّربوية عن مسارها الحقيقي؛ ومن هنا كانت الحاجة إلى منهج تربوي ثابت في أُصوله، واضح في مقوماته، ضرورة من ضرورات الحركة التّربوية، فهو الذي يرسم للتربية مسارها السليم المتوازن، ويحدّد معالم طريقها، ويوجّه الجهود والنشاطات والبرامج التّربوية لتعزيز المفاهيم والقيم الصالحة والسامية في الواقع الإنساني[1].

فعلى ذلك؛ تكون التّربية عمليّة إعداد وتنشئة وتوجيه وإصلاح، وقيادة للإنسان في مختلف مراحل حياته وأبعاد كيانه، خصوصاً في المرحلة التي يحتاج فيها الإنسان إلى عمليّة التنمية والإعداد والإصلاح؛ وبذا تكون التّربية عبارة عن عمليّة بناء الإنسان وتوجيهه، والوصول به إلى مرحلة النضج والكمال، وبنائه بناءً روحيّاً وفكريّاً

(١) أُنظر: العذاري، شهاب الدين، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام: ص٥.

وسلوكيّاً وجسديّاً متوازناً وسليماً، يمكّنه من أداء رسالته، والتعبير عن إنسانيّته[1].

ومن هنا؛ برزت أهمّية التّربية المعاصرة والمنهجية في كونها الأساس الذي يمكن أن نستند إليه في إنشاء وخلق بذرة التفكير في عقول المتعلِّمين حتى تكون جزءاً من شخصياتهم، ويعتادون عليه سواء في اكتساب المعرفة وطلب العلم، أو في جوانب الحياة المختلفة.

فالتّربية ـ بمفهومها الشامل ـ: تنمية الفرد تنميةً شاملةً متكاملةً من جميع الجوانب الروحيّة والعقليّة، والجسديّة والنفسيّة، والاجتماعيّة والجماليّة، بحيث لا يطغى جانب على آخر، فهي تنمية متوازنة مع الشمول والتكامل، تستهدف إعداد الفرد الصالح إعداداً شاملاً متكاملاً متّزناً؛ ليكون نافعاً لنفسه ومجتمعه، سعيداً في حياته[2].

النظام التربوي في الإسلام

تركّز التّربية الإسلاميّة على الاهتمام بوضع الأُسس الأُولى والمبادئ الأساسية لبناء عقل المتعلِّم وطريقة تفكيره، لتكون أساساً في تشكيل عقله وتنظيم فكره وفق المنهج الإسلامي وطريقة التفكير الحضاري في الإسلام، فتعليمه أنّ لكلِّ شيء سبباً ولكلِّ موجود غاية وقيمة في الوجود، وأنّ لهذا الشيء علاقة بغيره من الأشياء، وأنّ الإنسان يخطئ ويصحح خطأه، والعمل على تنظيم مبادئ القياس والاستنتاج في ذهنه وتفكيره، وأنّ العقل هو القوّة المدركة للمعرفة، وأنّ الحسّ والتجربة والملاحظة العلمية هي من الأدوات الأساسية لجمع المعلومات، وأنّ تعليمه كلّ تلك الحقائق وغيرها ـ عن طريق المنهج المدرسي أو القصص أو الممارسات وعرض تجارب الآخرين والتوعية وتفسير

(١) أُنظر: مؤسسة البلاغ، المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: ص١١.

(٢) أُنظر: الحيلة، محمد محمود، التصميم التعليمي نظرية وممارسة: ص١٩.

المشاهدات والملاحظات والتجارب ـ تسهم مساهمة فاعلة في بناء المقدِّمات التي تنتج عقلاً ذا تفكير علمي منتجٍ، بعيد عن الخرافة والتخلف والأساطير[1].

إنّ المنظّر التّربوي ـ في كلّ الأنظمة التّربوية ـ هو الذي يعمل على صياغة السياسات التّربوية ومواجهة المشكلات التي تعترض العملية التّربوية، واكتساب المعارف والمعلومات الصحيحة، وكيفيّة تطبيقها على الواقع الحياتي اليومي.

والتّربية في الإسلام تربطها قواسم مشتركة مع كلّ الفلسفات في العالم من حيث آليات العمل، ولكنّها تختلف معها من حيث المصدر والهدف والوسائل والأساليب، فمصدرها إلهي، وهدفها البناء الصحيح لحياة الإنسان، من خلال علاقته بربّه ونفسه ومجتمعه. وأساليبها ووسائلها نابعة من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة، الأمر الذي جعلها تختلف عن الفلسفات الأُخرى في المنهج والرؤية.

وقد اعتمدت التّربية في الإسلام على التعليم؛ لأنّه الأداة التي تنشدها التّربية وتسعى إليها فلسفتها، والتعليم في الفكر الفلسفي الإسلامي لا يركّز على الجسد أو الروح فقط، وإنّما يأخذ كلا الأمرين بنظر الاعتبار؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يسمو ولا يتقدَّم ولا يزدهر إلّا بتفاعل الجانب الروحي والجسدي.

ومع هذه الرصانة الإلهية للفلسفة التّربوية الإسلاميّة، فإنّه يجب على القائمين على العملية التّربوية بدءاً من واضعي المناهج وانتهاءً بمنفِّذي المناهج (المعلِّمين)، بالإضافة إلى أولياء الأُمور ـ للناشئين والأطفال ـ عليهم أن يؤطّروا الموقف التعليمي، ويصوغوا أهدافه العامّة والخاصّة على أساس نظرة الإسلام للتربية والتعليم، بحيث يكون التعليم عاملاً على تنمية الرقابة الإلهية والرقابة الذاتية في نفسية الفرد.

ومن خلال استعراض أبرز مصدرين في التشريع الإسلامي وهما (القرآن الكريم

(١) أُنظر: الخاقاني، فاطمة محمد آل شبير، الأمن التربوي للطفل: ص٥٢.

والسنّة الشريفة) نجد أنّ الإسلام الحنيف يؤكّد تأكيداً كبيراً على أهمّية التّربية والتعليم في بناء الفرد والمجتمع، ونلاحظ العديد من الآيات الكريمة فضلاً عن أحاديث المعصومين عليهم السلام تحضّ الإنسان على طلب العلم واكتساب المعرفة؛ باعتباره أكرم المخلوقات في هذه الأرض، وقد أعطى الإمام الصادق عليه السلام ـ والذي يكون هنا محور البحث على اعتباره مؤسّساً لمدرسة تربوية إسلامية فضلاً عن مدرسته الفقهية المتميِّزة ـ التّربية مكانة مرموقة ومتميِّزة؛ لأنها البذرة الأساسية في تكوين شخصية الفرد وصقلها ليكون فرداً مسلماً صالحاً داخل المجتمع الذي يعيش فيه.

قَبَسات من النُّظُم التّربوية عند الإمام الصادق عليه السلام

من خلال استعراض بعض الأقوال والأحاديث الشريفة للإمام الصادق عليه السلام نجد أنّ هذه الأحاديث يكمن في مضمونها مجموعة من النُّظُم التّربوية والأخلاقية ذات المضامين العالية، والتي تُعطي فلسفة واقعية موضوعية ذات صلة بالمنهج التّربوي السماوي الذي جاءت به الرسالة المحمدية السمحاء، ومن هذه النُّظُم:

أولاً: الإعداد الذاتي

من أساسيات المنهج التّربوي الذي حثّ الإسلام عليه هو بناء الذات بناءً صحيحاً، وفق نظام يضمن سلامة النفس من شرور الأهواء؛ فإنّ الأهواء أساس مشكلات العالم ككلّ، ومن هنا ركّز الإمام الصادق عليه السلام على ذلك كما سيتّضح، كما أنّه قد ركّز عليه السلام على ضرورة التفكّر الصحيح المعتدل، وأن لا ينعق مع كلّ ناعق، وهذا بحدِّ ذاته يعتبر تنظيراً وأساساً لبناء الفرد السويّ؛ وبالتالي أُسرة معتدلة ومجتمع متحضِّر بنظام صحيح.

وأيضاً وضَّح لنا الإمام عليه السلام وحثّنا على ضرورة متابعة النفس وتقويمها دائماً، وأن ننشغل بإصلاح ذاتنا قبل الآخرين، من خلال تتبّع الأخطاء وإصلاحها، وسيتمّ بذلك صلاح الفرد والمجتمع أيضاً؛ لأنّ كلّ فرد سينشغل بإصلاح نفسه. وفيما يلي بعض الروايات الدالة على ذلك:

أ) **تربية النفس**: فيما يخصّ جانب تربية النفس وزجرها عن الهوى، يقول عليه السلام: «**لا تدع النّفس وهواها؛ فإنّ هواها رداها، وترك النّفس وما تهوى أذاها، وكفّ النّفس عمّا تهوى دواها**»(١).

فهنا يشير الإمام الصادق عليه السلام إلى أنّه من الضروري واللازم أن يعمد الإنسان إلى تربية نفسه، والنفس البشرية لا بدّ من أن تُربّى ويُعتنى بها في كلِّ مرحلة من مراحل العمر، وليس فقط في مرحلة الطفولة، وبذلك يتمّ ردعها وزجرها عن كلِّ ما هو خارج حدود الله، وحينئذٍ يكون للفرد السيطرة على نفسه وهواها.

ب) **التفكّر والتأمل**: وأمّا ما يخصّ التفكّر والتأمّل، فإنّه عليه السلام، قال: «**لكلّ شيء دليل، ودليل العاقل التفكُّر، ودليل التفكُّر الصمت**»(٢).

وهذا حديث ضمن العديد من الأحاديث التي جاءت تؤكِّد على التفكّر والتفكير المستمرّ للإنسان، وليس أنّه ـ كما يعتقد بعض ـ يركِّز على التفكّر في الأُمور العبادية فقط، بل إنّ هذا الحديث يعطي بُعداً أوسع في هذا المجال، فهو يرى أنّ التفكّر في شأن وذات الله من الضروريات، وأنّ الأُمور العبادية تحتاج إلى تفكّر وتأنٍّ، فضلاً عن ذلك أنّ التفكّر وإعمال العقل يحتاجه الإنسان في مناحي الحياة كافّة.

إنَّ النظريات التّربوية الحديثة ـ ومنها النظرية البنائيّة والنظرية المعرفية ـ ترى أنّ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٣٣٦.

(٢) الحرّاني، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله: ص٣٨٦.

التفكّر والتفكير وما وراء التفكير، وما وراء المعرفة كلّ ذلك من ضروريات التعلّم والتّربية الصحيحة الناجحة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التفكير عنصر بارز في تقدُّم مستوى المتعلِّم الدراسي؛ لدوره الكبير في اكتساب المعرفة وتحقيق التقدُّم العلمي، وارتفاع نسبة التحصيل في الدراسة الأكاديمية.

كما أنّ التفكير نشاط طبيعي، تظهر أهميته من صعوبة الإحاطة بالنتاج المعرفي الكبير والمتسارع وأخذه بكمّه وشكله؛ لذا ينبغي لنا تدريب الفرد على مهاراته، وتعليمه الطُّرق التي تساعده على التفكير السليم المنتج.

وبيّنت العديد من البحوث والدراسات التّربوية أنّ للتفكير أهمّيّة بالغة الأثر في نفوس المتعلِّمين؛ من خلال تحفيز الوازع الذاتي للتعلُّم، وتمكينهم من التفاعل داخل الصف الدراسي بصورة فعّالة وواضحة، ومواجهة العقبات والصعوبات التي تعترض طريقهم في اكتساب المعلومات العلمية، فضلاً عن ذلك أنّ التفكير يُحفّز المتعلِّم على ممارسة العمليات العقلية بنجاح.

وعليه؛ يمكن القول: إنّ التعلُّم في المدرسة يجب أن يسعى إلى تنمية التفكير لدى المتعلِّم، وهذا لا يتمّ إلّا من خلال تنمية شخصيّة المتعلِّم من جميع جوانبها الجسميّة والعقليّة والاجتماعيّة والانفعاليّة والروحيـّة[1].

ج) وفيما يختصّ بالتقويم المستمرّ للذات، فإنّه عليه السلام قال: «**أنفع الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه**»[2]، وقال عليه السلام: «**أحبّ إخواني إليّ مَن أهدى إليّ عيوبي**»[3].

(١) عبد الهادي، نبيل، وعياد، وليد، استراتيجيات تعلُّم مهارات التفكير: ص٢٦.

(٢) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله: ص٣٦٦.

(٣) المصدر السابق.

إنّ للتربية دوراً كبيراً في بناء الفرد والمجتمع على حدٍّ سواء، فمن طريقها نستطيع أن نجعل الإنسان عالماً صالحاً نافعاً، أو جاهلاً ضارّاً. وهدف التّربية تنمية القابليات الإنسانية وصياغة الشخصية البشرية الصالحة، وتنشئة الجيل والنهوض به نحو الأخلاق السامية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ عملية التقويم المستمرّ ضرورة حتمية في الميدان التّربوي للفرد والمجتمع، لكي يتعرّف الأفراد على مدى النجاح الذي تحقّق في أنفسهم وشخصياتهم وأعمالهم، وما حقّقوه من إنجاز في ضوء الأهداف التي يطمح كلُّ فرد أن يصل إليها.

كما أنّ تقويم أداء الفرد من قِبَل نفسه والآخرين يعمل على تشخيص الصعوبات والمشكلات والأخطاء التي يعيشها، والوقوف عليها من أجل تذليلها وتقديم المقترحات لعلاجها، الأمر الذي يؤدّي إلى تحسين شخصية الفرد وعلاقته مع ربِّه ومع الآخرين.

كما أنَّ التقييم الذاتي للنّفس عمل هام وضرورة نفسيّة واجتماعيّة، به يتعرَّف الإنسان على صفاته وقدراته العقليّة والعاطفيّة والخلقيّة، ويرى في نفسه عوامل القوّة والضعف، من خلال التقييم الصحيح والواقعي، ولها الأثر الأكبر في تعيين سلوكه ومستوى طموحه، وفكرة المرء عن نفسه[1].

وبعد التقييم الذاتي ومعرفة النفس يأتي دور المحاسبة لها التي تسمو بالنفس البشرية وتجعلها تقدِّم أفضل ما لديها في جانب علاقتها مع ربِّها وعلاقتها مع الآخرين، وتُسهم في إيقاف الانحراف، والتوجّه إلى الإصلاح والتكامل والبناء التّربوي للفرد وللمجتمع.

(١) العذاري، شهاب الدين، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام: ص٤٤.

ثانياً: التدرّج والتسلسل في التّربية

كلُّنا نعلم أنّ الطفل مكوِّن مهمّ في المجتمع، ومن ثَمَّ كان لزاماً علينا أن نربّيه تربيةً صحيحة، وفق ضوابط منهجية ومنظّمة، وأنّ هذه التّربية تكمن في التدرُّج مع هذا الطفل، وأن لا نلزم طريقة واحدة ومستوى واحداً، بل نحتاج إلى التّسلسل معه وحسب نموه الفسلجي والسيكولوجي، وأيضاً قد أسعفنا ـ بل كان هو عليه السلام أساسه ـ الإمام الصادق عليه السلام في كيفيّة ذلك، فقال: «**دع ابنك يلعب سبع سنين، ويُؤدَّب سبع سنين، وألزمه نفسك سبع سنين**»[1].

إنّ الإنسان منذ لحظة ولادته ـ إلى لحظة وفاته ـ يمرّ بمجموعة من المراحل العمرية ابتداءً من مرحلة الطفولة المبكرة والمتأخِّرة، ومرحلة المراهقة، ومرحلة الشباب، ومرحلة الرشد، ومرحلة الشيخوخة، ولكلِّ مرحلة من هذه المراحل خصائصها ومميزاتها التي تنفرد بها وتُميّزها عـن المراحل الأُخرى، وهذا ما أكَّده علم نفس النمو (الارتقائي)، وأنّ الإمام الصادق عليه السلام أشار إلى هذا التبدُّل والتطوّر الذي يطرأ على الفرد؛ إذ أكّد عليه السلام ـ في هذا القول وغيره من الأقوال ـ على أنّ التّربية حالة إيجابية، لكن يجب أن تكون متدرِّجة ومتتالية مع المرحلة التي يمرّ بها الطفل؛ لأنّ مراعاة التدرّج في التّربية أحد العوامل المهمّة التي تُسهم إسهاماً فاعلاً في النجاح التّربوي، وأنّ البناء التّربوي الصحيح لا يمكن أن يُبنى ما لم يكن متلائماً مع المدّة العمرية التي يمرّ بها الطفل.

والمنهج التّربوي لأهل البيت عليهم السلام عموماً يواكب حركة الإنسان في جميع مراحلها، ابتداءً من مرحلة شريك الحياة المناسب، مروراً بمرحلة الاقتران وانعقاد

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤، ص١٠.

الجنين ومراحل الطفولة الأُخرى، ويضع لكلّ مرحلة تعاليم خاصة بها، وتوجيهات منسجمة مع عمر الطفل الزمني والعقلي ومع حاجاته المادية والروحية[1].

وهذا التدرّج أبرز لنا رأيَ مدرسةٍ إسلاميّةٍ مهمّة في تربية وتنشئة الأبناء، وبدأت العديد من النظريات التّربوية الوضعيّة تُغيِّر من آرائها وفلسفاتها وتنحني إجلالاً أمام هذا الرأي السديد الذي صدر عن معصوم، وبالتالي عن الرسول الكريم محمدﷺ، ثمَّ عن السماء، فليس في هذه الآراء ضعف ولا سلبيات، كما في النظريات التّربوية والتعليمية الوضعية.

إنّ هذا التوجيه المبارك الصادر من إمام معصوم يمنح المعلّمين والمربّين وأولياء الأُمور خارطةً تربوية موضوعية صادقة، تُسهِّل عملهم في كيفيّة التّربية والتنشئة الاجتماعية الصحيحة الخالية من الأخطاء والعيوب.

ثالثاً: تربية الأُسرة والمجتمع عِبْرَ مداراة الناس والتعاون المستمرّ

ومن النُّظُم التّربوية ـ أيضاً ـ عند الإمام الصادقعليه السلام هو تربية الأُسرة لتُنتج مجتمعاً، عِبْرَ التعاطي مع الآخرين بصورة صحيحة ومعتدلة، من خلال المداراة بحسن خلقٍ ولطفٍ في التعامل.

كما أنّ الإمامعليه السلام ركّز كذلك على أهمّية التعاون والتزاور بين الناس والتوادّ، وبذلك يعلم كلٌّ منّا بما يُحيط الآخرين ويشاركهم أفراحهم وأحزانهم وقضاء حوائجهم.

فأمّا ما يخصّ مداراة الناس، فقد ورد عنهعليه السلام أنّه قال: «**قال رسول اللهﷺ: أمرني ربّي بمداراة الناس، كما أمرني بأداء الفرائض**»[2].

(١) فلسفي، محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتّربية (تعريب السيد فاضل الحسيني الميلاني): ص٢٧.
(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١١٧.

وعنه عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاث مَن لم يكنّ فيه لم يتمّ له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخُلق يداري به الناس، وحلم يردُّ به جهل الجاهل**»[1].

وعنه عليه السلام: «**رحم الله عبداً اجترّ مودّة الناس إلينا، فحدّثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون**»[2].

إنّ المربّي يجد أصنافاً من الناس يختلفون في أعمارهم وأجناسهم، ويختلفون في طاقاتهم وإمكاناتهم الفكريّة والعاطفيّة والسلوكيّة، ويختلفون في انتماءاتهم وولاءاتهم الطبقيّة والقبليّة والقوميّة والطائفيّة، ويختلفون في درجات قُرْبِهم وبُعْدِهم عن الدين، ويختلفون في نظرتهم للمربّي من حيث الاحترام والتقدير وعدمهما، ومن حيث الثقة به وعدمها، وجميع ذلك بحاجة إلى المداراة[3].

ومبدأ المدارة هو أشبه بما أقرّته النظريات التّربوية الحديثة، هو ضرورة مراعاة الفروق الفردية بين الأطفال في التّربية والتعليم، فلا يوجد هناك اثنان متشابهان إطلاقاً، فلكلِّ فرد قابليته وميوله ودوافعه واتّجاهاته وعواطفه وفكره وأُسلوبه الخاصّ الذي يميِّزه عن الآخرين.

ومن هنا؛ فلا بدّ من الاهتمام بالفروق الفردية بين الأطفال، أي: مداراة الأطفال والأفراد؛ لأنّ الأُسلوب أو الطريقة التي نجحت في تربية فرد ما قد لا تأتي بنتيجة إيجابية في تربية أخٍ له، فكيف بها مع أطفال وأفراد آخرين؟!

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أنّ الاستراتيجيات المستعملة في التدريس في مدارسنا اليوم يجب أن تحتوي على عناصر إعمال الفكر والتفكير والإبداع، والتعلُّم الذاتي،

(١) المصدر السابق: ج٢، ص١١٦.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٢، ص٦٥.

(٣) أُنظر: العذاري، شهاب الدين، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيت عليهم السلام: ص٥٤.

ومراعاة الفروق الفردية، وهذا يقود إلى التفكير المعرفي وما وراء المعرفي، ومن أجل تحقيق ذلك لا بدّ من تضافر الجهود المبذولة من القائمين على العملية التعليمية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ أُسلوب المدارة ليس فقط في التّربية والتعليم، بل أوجبه الشارع المقدَّس على لسان المعصومين عليهم السلام في التعامل مع الناس؛ وذلك بسبب اختلاف الطباع والأمزجة والصفات النفسية والجسمية والعقلية بين الناس.

وما يخصّ التعاون والتزاور بين الناس، فإنّه عليه السلام قال: «**رحم الله قوماً كانوا سراجاً ومناراً، كانوا دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقاتهم**»(١).

وقال عليه السلام: «**تزاوروا؛ فإنّ في زيارتكم إحياءً لقلوبكم وذكراً لأحاديثنا، أحاديثنا تعطف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فـخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم**»(٢).

إنَّ الإنسان مع ما أعطاه الله تعالى، من صفات، وسمات تميِّزه عن غيره من المخلوقات الموجودة على سطح الأرض، تظل قدراته الجسدية، والعقلية، قاصرة عن تحقيق كلِّ ما يطمح إليه من رغبات وأهداف، ما لم يتعاون مع الآخرين أخذاً وعطاءً، ويتعاون الآخرون معه لتحقيق الأهداف المشتركة التي يصبون إليها.

والفكر التّربوي الإسلامي يعمل على إيجاد المجتمع المسلم المتعاون، من خلال الاهتمام ببناء الإنسان أينما وجد، ليتربّى وفق القيم السماويّة التي أكّدها الله تعالى، كما في قوله جلَّ وعلا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾(٣).

(١) الحراني، ابن شعبة، تحف العقول عن آل الرسول صلى الله عليه وآله: ص٢٢١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص١٨٦.

(٣) المائدة: آية٢.

والتعاون بذلك صلة ورابط بين الإنسان وأخيه الإنسان، يعمِّق الشعور بالودّ والتعاطف والتقارب بين أفراد المجتمع الإسلامي، ومختلف أفراد بني البشر، بعيداً عن اللون أو الجنس، أو اللغة أو العِرق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

فالتعاون في الإسلام قاعدة أساسيّة في تربية المجتمع المسلم، لإعداد كلّ فرد إعداداً يؤهِّله أنْ يكون فرداً صالحاً، وعضواً نافعاً، وكائناً اجتماعياً متكيّفاً، مع المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه.

كما أنَّ التعاون بين النّاس في الجوانب التّربوية يُحقّق فوائد ومزايا عديدة، لعل أبرزها وأهمّها تبادل الخبرات بين أفراد المجتمع؛ ممّا ينتج إمكانية أنْ يعلّم أحدهم الآخر كثيراً من الأُسس التّربوية الصحيحة، فتتعدد مصادر خبراتهم، وبالتالي يتحسّن مستوى كلّ فرد في الجانب التّربوي، ويعالج الضعف بشكل أفضل من الآراء الفردية.

الخصائص العامّة للنظام التربوي في الإسلام

إنّ التّربية في الإسلام قائمة على مجموعة من الخصائص، قد عمل الإسلام على تجسيدها، وتفرّد بها عن بقية الفلسفات الموجودة في العالم، وهذه الخصائص هي:

١ـ إنّ التّربية في الإسلام ذات منبع إلهي، فالنُّظم التي تقدّمت لم يكن لأيّ إنسان أن ينظِّر لها.

٢ـ إنّ التّربية في الإسلام ذات طابع أُممي عالمي، وهذه النُّظُم ـ المتقدِّمة ـ تنفع كلَّ العالم؛ لأنّها تتناغم مع العقل.

---

(١) الحجرات: آية١٣.

٣ـ إنّ التّربية في الإسلام ذات طابع شمولي لكلِّ مكان وزمان، فإنّ بناء الفرد طبقاً لما قدَّمناه من نظام صالحٍ لكلّ الأمكنة والأزمنة.

٤ـ إنّ التّربية في الإسلام ذات منهج ثابت لا يتغيَّر بالتناقض والازدواجية.

٥ـ إنّ التّربية في الإسلام ذات طابع وسطي، والوسطية: هي عبارة عن عدم الإفراط والتفريط في كلِّ فقرة من فقرات بناء الذّات والمجتمع.

خصائص النظام التّربوي عند الإمام الصادق عليه السلام

إن النظام التربوي من خلال الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام تتناغم مع الروح العامّة لأُسس التربية الإسلاميّة، بل إنّها تغذّي النظرية التربوية الإسلاميّة؛ باعتبار وحدة المنبع الإلهي. وفيما يأتي نقدّم بعض السمات التربوية في ضوء كلمات الإمام الصادق عليه السلام:

١ـ إنّ الفلسفة التّربوية عند الإمام الصادق عليه السلام تهدف إلى تشكيل نظام تربوي رصين قائم على أُسس علميّة؛ لأنّ أغلب الفلسفات التّربوية الوضعية تعتمد على أنظمة تربوية وفلسفية بشرية، وعلى الرغم من تقدُّم وتطوّر بعضها لكنّها لا تستطيع أن تصمد أمام التحديات التي تفرزها المجتمعات، والمشكلات التي تظهر بين الحين والآخر؛ لأنّ التّربية وأنظمتها كافّة كلّما كانت صحيحة تركت أثراً إيجابياً على تنشئة الفرد وعلى سلوكه وتصرفاته، والعكس صحيح، أي: كلّما كانت التربية ليست بالمستوى المطلوب تركت أثراً سلبياً على تكوين الفرد.

وكلّ ما صدر عن الإمام الصادق عليه السلام من توجيهات تربويّة كانت عين الصواب؛ لأنّها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، وبالدور الذي أُوكل إليه كإمام معصوم مفترض الطاعة، يمارس دوره الإلهي بصورة فاعلة.

٢ـ ويتجلّى لنا عند استقراء توجيهاته عليه السلام ونظرته للفرد والمجتمع، وتأكيده على أنّ البناء الاجتماعي الصحيح يتكوّن من النهوض بتربية الفرد وتعليمه القِيَم والأنظمة التّربوية الصحيحة، وأنّ التّربية الإسلاميّة ـ المبنيّة على تعاليم أهل البيت عليهم السلام ـ حوت كلَّ النُّظُم المتناهية التنظيم والتنسيق وعلى جميع أصعدة طبقات المجتمع.

٣ـ إنَّ تربية الفرد والمجتمع ـ كما يرى الإمام الصادق عليه السلام ـ يجب أن تأخذ مبدأ الوسطية والاعتدال، وعدم الاهتمام بجانب على حساب الجوانب الأُخرى؛ لأنّ سعادة الفرد لا تتحقق من جهة واحدة، فحاجاته متنوّعة، ويجب أن تراعى كلّها، ويُوازَن بين الحاجات البايلوجية والسيكولوجية والعقلية والاجتماعية.

الواقع التّربوي اليوم

إنّ غياب الرؤية الصحيحة لاستقراء السلوك الإنساني ـ وكيفيّة بناء الشخصية المتّزنة بجوانبها المختلفة ـ أدّى بأصحاب الفكر التّربوي إلى البحث عن الأساليب الصحيحة في بناء الفرد والمجتمع، وتربيتهما على أُسس ذات أثر عميق تواكب التغيرات الحاصلة في الفكر والسلوك؛ لذا نسمع صيحات من علماء التّربية والتعليم ومنظِّري فلسفتهما، يدعون إلى إعادة النظر في الفلسفات التّربوية القائمة اليوم؛ لأنّها لم تَعُد قادرة على أن تبني الأُسس الصحيحة في التّربية والتعليم، أو لعجز بعضها أو أغلبها عن مواجهة المشكلات القائمة في سلوك الفرد والمجتمع. إنّ هذه الفلسفات التّربوية الوضعية لم تَعُد قادرة على بناء الإنسان بشكل متوازن يُحقِّق تفاعل الروح والجسد ويُنمّي العقل.

وكما هو معلوم، فإنّ فلسفة التّربية في الإسلام توازن بين طلب الدنيا وطلب الآخرة، فلا تمنع الإنسان من التمتّع بالطيبات الدنيوية كالمأكل والمشرب والملبس

والإشباع العاطفي والجنسي؛ لأنّ الحرمان يولِّد القلق والاضطراب، وهي في الوقت نفسه توجّه الإنسان إلى الإعداد للدار الآخرة بالالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية، فلا يطغى طلب الدنيا على طلب الآخرة بالانغماس بالطيّبات والملذّات دون قيود وحدود، ولا يطغى طلب الآخرة على الدنيا بحرمان الإنسان من متعه المشروعة[1].

واليوم إذ أفرزت الحضارة المادّية أبشع صور الفساد الاجتماعي، وأقسى مراتب الاستبداد السياسي ممّا لا عهد للإنسان به منذ أقدم العصور، ورغم ما تتبجّح به الدول الكبرى من بلوغها درجة قياسية في التكنولوجيا، فإنّ المفاهيم الحضارية والمادّية الماسكة بزمام الأُمور، والتي تقف وراء هذا التقدُّم العلمي، هبطت إلى درجة من الانحطاط والتأخُّر؛ لأنّها تعاملت مع الإنسان بتصوّر مادّي هبط به إلى أدنى مستويات الفشل الاجتماعي[2].

ولا زال المتخصّصون في شؤون التّربية يبذلون جهوداً كبيرة للوصول إلى منهج تربوي قادر على تربية الإنسان والمجتمع على أُسس سليمة صالحة، إلّا أنّها لم تتّفق على نقاط مشتركة يمكنها أن تكون ميزاناً ومعياراً للجميع؛ لاختلاف العلماء والباحثين في متبنّياتهم الفكرية، ولاختلافهم في معرفة القوى المؤثّرة في حركة الكون والحياة والمجتمع والتأريخ[3].

ومن هنا؛ لا بدّ من طرح رؤية تربويّة جديدة تأخذ معطياتها من الأفكار التي أكّدتها الرسالة السماوية السمحاء، وتصدّى لها الثقل الثاني الذي تركه الرسول الكريم محمدﷺ، وهم آل البيتعليهم السلام، فإذا أردنا أن ننجح في رؤانا التّربوية لا بدّ

(١) أُنظر: العذاري، شهاب الدين، مقومات التّربية (الصحة النفسية للأطفال): ص١٩.

(٢) مؤسسة البلاغ، المعالم الأساسية للمنهج التربوي في الإسلام: ص٧.

(٣) العذاري، شهاب الدين، ملامح المنهج التربوي عند أهل البيتعليهم السلام: ص٧.

من أخذ التوجيهات السديدة من منبعها الأصلي ومن منظِّريها الحقيقيين الذين لا يبتعدون ولا ينفكّون عن الارتباط بالمنهج الربّاني الإلهي وبالقرآن الكريم.

الخلاصة والاستنتاج

من خلال ما تقدّم من بحث توصّلنا إلى النتائج الآتية:

١ـ إنّ المشروع التّربوي الإسلامي وفلسفته المثالية عند الإمام الصادق عليه السلام، هو مشروع ناجح يصلح لكلّ المجتمعات من حيث التّربية والتعليم والتنشئة، أو من حيث حلّ المشكلات القائمة.

٢ـ إنّ فلسفة التّربية في الإسلام عند الإمام الصادق عليه السلام تعمل على بناء الإنسان أينما وُجِد، ليتربّى وفقاً للقيم السماويّة الحقيقيّة الصادقة الملائمة لكلّ مكان وزمان.

٣ـ إنّ الصراع بين الفلسفات التّربوية القائمة أثبت فشلها جميعاً في إيجاد حلول للوضع التربوي القائم والارتقاء به؛ لأنّها فلسفات وضعيّة غير دقيقة وغير متينة في صياغتها، وغير واقعية في علاجاتها.

٤ـ لم تترك فلسفة التّربية الإسلاميّة عند الإمام الصادق عليه السلام الإنسانَ في محطة دون أُخرى، فهي ترافقه في مسيرة حياته منذ نشأته إلى أن يأذن الله برحيله من هذه الدنيا، وتهتمّ به وهو جنين في بطن أُمّه، إلى مرحلة ولادته، إلى طفولته وصباه وشبابه ورُشده وشيخوخته.

٥ـ تركيز الإمام الصادق عليه السلام على أهمّية استعمال الأساليب التّربوية الناجحة في التعامل مع الأبناء؛ لأنّ نجاح التّربية الإسلاميّة منوط بنجاح الأساليب التّربوية المستعملة.

٦ـ تأكيد الإمام الصادق عليه السلام في مواقف مختلفة على مبدأ التعامل مع الناس بصورة

عادلة، من غير تمييز أو مفاضلة بين أحد على حساب آخر، فالكلّ سواء في العملية التّربوية ومن دون تمايز بين غني أو فقير، أو غير ذلك.

٧ـ جعل الإمام الصادقعليه السلام مبدأ الانفتاح كعامل أساس في مكوّنات التّربية الإسلاميّة، مؤكّداً على ضرورة الابتعاد عن الانغلاق والجمود وعدم التفاعل مع مجريات الحداثة، بل إنّهعليه السلام خطَّ الأُسس العامّة للانفتاح التّربوي والعلمي الواعي على ما هو مفيد مع مراعاة بقاء التّربية الإسلاميّة هي الأصل، لكن لا بأس بأخذ ما هو مفيد من النظريات التّربوية أو العلمية الأُخرى.